مجلة المجمع العلمي

كعب بن زهير
بين الغربة والانتماء في نصه الشعري

الدكتور عبد الرزاق خليفة محمود
جامعة بغداد / كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الملخص :

كعب بن زهير من أشهر الشعراء في عهد النبي محمد ((صلى الله عليه وسلم)) وهو صاحب القصيدة التي اعتذر فيها لرسول الله تعالى .

البحث يتحدث عن قضية انسانية هي الغربة والانتماء الى القبيلة أو الوطن ، وقد اتخذ البحث شعر كعب أساسا في هذه الدراسة .

المقدمـــة :

في عملية الإبداع تتداعى مفردات العمل الفني من منافذ متشعبة قد لا يكون قسط الوعي فيها أوضح من قسط اللاوعي ، ولعل الإبداع الشعري بشكل خاص أوضح ميادين نشاط اللاوعي في عملية تشكيل التفاصيل الدقيقة والرئيسة للعمل الفني .

وحين يعاني الشاعر من معضلات شخصية او اجتماعية حادة ، وتغدو اثار تلك المعضلات جزءً من تكوينه النفسي ، يكون على القراءة النقدية ان تتجه الى استكشاف بصمات اللاوعي في شعره اكثر من اتجاهها

الى محاولة استكشاف اثار الوعي في بلورة الباعث الآني على انتاج النص ، على أن تلك القراءة مسؤولة عن أن تتجه الى تامل اثر تكوين لاوعي الشاعر في عملية اختيار تجاربه الشعرية دون سواها من مجمل تجاربه الانسانية المتاحة .

ويندر أن يخلو التكوين النفسي لأيّ شاعر من اثار منعطفات حادة في حياته ، بيد أن الأمر خاضع لتباين نسبي ، شأنه شأن أية ظاهرة انسانية أُخرى ، ولسنا نريد أن نغلو فنزعم أن كمية تلك المنعطفات أو حدتها هما المسؤولان عن انبثاق العبقريات الشعرية وتميزها ولكننا قد نلمح ان كبرى العبقريات الشعرية في عصور الشعر العربي تنتمي الى مجاري حياة شخصية لاتخلو من منعطفات نفسية يكون لها اثرها الواضح في نتاج كل منها .

وكعب بن زهير _ الشاعر الجاهلي المخضرم _ صورة متميزة من صور هذه العبقريات الشعرية التي تشكل معظم نتاجها الشعري في اطار المعاناة النفسية الحادة التي بلورتها تجارب حياته العنيفة ، فقد كان لطبيعة ولادته ومجرى سيرته الشخصية والقبلية وما رافقها من تغيرات حادة ان تحفر اثارها الحادة والعميقة في نتاجه الشعري وتشكّل الطبيعة المتميزة لمجاريه الفكرية والفنية على السواء .

ولد كعب بن زهير في مضارب بني مرة الغطفانيين بالحاجر من نجد ، ونشأ في كنف ابيه الشاعر زهير بن ابي سلمى ، وكان زهير ينحدر من اصل مزني ولكنه ولد في بني مرة الغطفانيين ، فقد روى الاصفهاني أن ابا سلمى (ربيعة بن رياح) والد زهير كان يعيش في اخواله من بني

مرة فأغار مع اخواله على طيء فاصابوا نعما كثيرة فلما عادوا اقتسموا فلم يفردوا له شيئا فارتحل عنهم الى قوم ابيه مزينة واقام فيها حينا ثم اغار برهط منهم على ذبيان ، فلما نظروا أرض ذبيان تطايروا عنه راجعين ، فأقبل حتى دخل في اخواله بني مرة فلم يزل وولده فيهم[١] .

وقد تزوج أبو سلمى امرأة مرية هي اخت الشاعر بشامة بن الغدير الذي ذكر الرواد ان زهيرا اخذ الشعر عنه[٢] وولد لأبي سلمى منها ابناه زهير واوس وابنتاه سلمى والخنساء...

وتزوج زهير نفسه من امرأة مرية أيضا هي كبشة بنت عمار بن سحيم[٣] فولدت له أبناءه كعبا وبجيرا وسالما وابنته وبرة .

ويبدو أن إقامة أبي سلمى وأبنائه واحفاده في بني مُرّة كانت السبب في ترجح العلماء بين اعادة نسبته الى قومه مزينة مرة والى اخواله المريين مرة اخرى ، فقد قرر ابن سلام في ترجمة زهير بن ابي سلمى انه مزني[٤] ولكنه ذكر في ترجمة كعب ابنه ان ابا سلمى واهل بيته كانوا في بني عبد الله بن غطفان فيهم يعرفون واليهم ينسبون وإن اهل العلم من غطفان يؤكدون هذا النسب ولكن العامة ينسبونهم الى مزينة[٥].

---

[١] ينظر الأغاني ، لأبي فرج الأصفهاني ، طبعة دار الكتب ، ١٠/٢٩١-١٩٣.

[٢] ينظر شرح ديوان زهير ، طبعة دار الكتب ١٩٤٤م ، ٣٢٥ والأغاني ١٠/٣١٢ .

[٣] ينظر شرح ديوان زهير ٣١٣ والأغاني ١٧/٨٢.

[٤] طبقات فحول الشعراء ، لأبن سلام ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مصر ١٩٧٤م ، ١/٥١.

[٥] م . ن ١/١٠٦ ، ١٠٩.

وعلى هذا الترجح ابن قتيبة الذي ترجم زهيرا مرتين فيقول في أولى ترجمتيه إن (الناس ينسبونه إلى مزينة وإنما نسبه في غطفان) ويقول في الأخرى أنه (من مزينة مضر)[٦] وتابع ابن قتيبة على ترجحه ابن هشام[٧] والسجستاني[٨] بيد أن الشواهد القاطعة تقوم على صحة انتماء ابي سلمى وعقبه الى مزينة فكعب بن زهير نفسه يصرح بهذا النسب في شعره فهو يقول في مهاجاة له مع مزرد بن ضرار...

أعيَّرتني عِـزّا عزيـزا و مَعْشَرا كِـراما بَنَواْ لي المجدَ في باذخٍ أشَمّْ
هُمُ الأصلُ مني حيثُ كنتُ وإنَّني من المُزنييِّـنَ المُصفَّينَ بالكَـرَمْ[٩]

ويكرر هذا التصريح في موضعين اخرين من ديوانه[١٠] فضلا عن أن ابن ميادة الشاعر هاجى أحد احفاد كعب فصرح بنسبه المزني[١١].

والذي يعنينا من مسألة النسب هذه إن كعبا ولد في مضارب اخواله بني مرة الغطفانيين وهو يعلم أن انتماءه ليس اليهم وانما الى قومه مزينة ، وولادة المرء ونشأته في قوم لاتربطه بهم إلا أواصر الخؤولة

---

[٦] الشعر والشعراء ، لأبن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مصر ١٩٦٧م ، ١/ ١٣٧ ، ١٤١.

[٧] ينظر السيرة النبوية ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر ١٩٧٧م ، ١١٤/١.

[٨] ينظر المعمرون والوصايا ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مصر ١٩٦١م ، ٨٣ .

[٩] ديوانه طبعة دار الكتب ، ١٩٥٠م ، ٦٧.

[١٠] م . ن ، ٦٩ ، ١١٢.

[١١] الأغاني ، ٢٦٨/٢.

والمصاهرة امر له شأنه في المجتمع القبلي الذي يشكّل الانتماء الدموي فيه اللبنة الاساسية لوجود الفرد الانساني وكرامته الاجتماعية .

ولقد واجه زهير والد كعب الامر نفسه حين ولد في بني مرة الغطفانيين وهو يعلم ان انتماءه الى مزينة وإن اقامته في اخواله المزينين أمر حتّمه عليه استقرار ابيه فيهم فما كان منه إلا ان وطّن نفسه على الاقامة الدائمة فتزوج فيهم وانجب ، وكان أن تجنب أي موقف يستثير الحاجة الآنية الى الانتماء الدموي ، ولعل ذلك احد اسرار ما اتفق عليه العلماء من روايات تؤكد تنزيه خلقه وبعده عن الدنايا ومواقف العنف ، فقد ذكروا أنه كان (يتعفف في شعره) [١٢] وانه ممن (حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية) [١٣] وأنه كان (من مترهبة العرب)[١٤].

ولعل العودة إلى ديوان زهير كفيلة بأن تقرر إن الرجل كاد يقصر شعره على مديح رجال بني مرة وفزارة فاذا تجاوز المديح مارس رثاء من يموت منهم ، ويكاد ديوانه بعد ذلك يخلو من الفخر القبلي ، أما الهجاء فإنه لم يمارسه إلا في ثلاثة مواقف[١٥] وعلى الرغم من أنه لم يهج إلا مضطرا فإنه بادر الى القول : ((ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خشيت الله أن يصيبني بعقوبة لهجائي قوما ظلمتهم))[١٦].

---

[١٢] الشعر والشعراء ١٣٩/١.

[١٣] ينظر المحبر ، لأبن حبيب ، تحقيق ايلزة ليختن ، بيروت (د.ت) ، ٢٢٨ .

[١٤] جمهرة اشعار العرب ، لأبي زيد القرشي ، تحقيق علي محمد البجاوي ،مصر ١٩٦٧م ، ٧١/١.

[١٥] ينظر ديوانه ، ١٦٤ ، ٣٠٠ ، ٣٢١.

[١٦] ديوانه ٥٦.

وهكذا واجه زهير عقدة الانتزاع من الانتماء بالتسامي الإنساني ، أما كعب ابنه فقد واجه العقدة من موقع آخر تماما ، فهو متمرد على هذا الواقع الذي فرض عليه بالولادة ، فشخصيته العنيفة ومزاجه الحاد كانا يحركانه دائما الى محاولة خوض مواقف الصراع والمواجهة ، وذلك أمر يحتاج في المجتمع البدوي الى اتكاء على وشيجة دم لم تكن مهيأة له وهو يقيم في قوم لا تربطه بهم الّا رابطة الخؤولة فضلا عن رغبة هؤلاء القوم عن خوض أي صراع واعراضهم حتى عن المشاركة في حرب داحس والغبراء التي خاضها ابناء عمهم من عبس وذبيان بل سعيهم في اطفاء نار تلك الحرب وتمكنهم من ذلك بما بذلوه من جهد ومال .

ولعل كعبا كان حريا بأن يغادر مضارب أخواله المربين المسالمين الى مضارب قومه المزنيين الذين كانوا يخوضون صراعا عنيفا مع الخزرج وغيرهم لولا أنه كان مفتقرا الى إعالة أبيه له ولأسرته فقد ذكر الرواة إنه كان فقيرا وإن أباه (كان موسعا عليه في بره)[١٧] على إن اضطراره الى الاستقرار في بني مُرّة لم يكن ليمحو من اعماقه هذا الاحساس بالغربة والضياع وعدم القدرة على التعبير عن هذا الاندفاع في الشخصية والحدة في المزاج ولنا ألا نستبعد أن يكون مبعث ما تداوله الرواة من ان اباه منعه من قول الشعر اول شبابه (مخافة أن يروى عنه مالا خير فيه)[١٨] لم يكن لهذا السبب فحسب وانما لخوف الأب أن يستعمل ابنه سلاح الشعر الفتاك في أمور قد تجلب عليه ما لا تحمد عقباه ، والذي

---

[١٧] بنظر ديوانه ٢١٣.

[١٨] بنظر الأغاني ١٧/٨٤-٨٥.

يؤكد ما نذهب إليه أنه حين سمح له أبوه بقول الشعر بعد أن اختبر شاعريته عاد وهو يقول :

أبيتُ فلا أهْجُو الصَّديقَ ومن يَبِعْ بعِرْضِ أَبيه في المَعَاشِرِ يُنْفِق [١٩]

فالبيت إشارة حاسمة إلى أن أباه لم يكن معنيا بقوله الشعر أو امتناعه عن قوله قدر عنايته بأن يكون شعره بعيدا عن اثارة ما قد يثلب من المكانة الاجتماعية السامية التي تحققت له ولآل أبي سُلمى في بني مُرّة وبين احياء العرب ، وتلك حقيقة أكدها كعب نفسه في موضع آخر من شعره حين قال :

وبالعَفْوِ وَصَّانِي أبي وعَشِيرَتي وبالدَّفْعِ عَنْهَا فِي أُمُورٍ تَرِيبُهَا

وقَوْمَكَ فَاسْتَبِق المَوَدَّةَ فيهِمُ ونَفْسَكَ جَنِّبْهَا الَّذي قد يَعِيبُهَا [٢٠]

ولكن ذلك كله لم يكن كفيلا بكبح جماح شخصية كعب التي ظلت تجد في غربتها وافتقادها الانتماء الدموي باعث تمرد ومواجهة لاباعث مهادنة وتكيّف للظروف .

لقد اثار كعب من الخصومات التي ادرك والده زهير أن ابنه سيثيرها عندما حاول أن يمنعه من قول الشعر ، فقد ذكر الرُّواة أن زيد الخيل الطائي اغار على غطفان - وكان بين غطفان وطيء غزو واغارة - فأُسِرَ فيمن أُسِر بجير بن زهير ، فلما سأله عن اسمه ونسبه وعرفه اطلقه اكراما لابيه فأتي بجير أباه واخبره بما فعل زيد فارسل زهير بفرس كميت كان لكعب هبة الى زيد ، وكان كعب غائبا ، فلما

---

[١٩] تنظر تفاصيل الرواية كاملة مع الشعر في ديوان زهير ٢٥٦ وما بعدها.

[٢٠] ديوانه ٢٠٩.

حضر أُخبر بخبر الفرس وبذل له أبوه ثمنه فأبىٰ ، وقال ابياتا يدعو بني ملقط الطائيين فيها الى انتزاع فرسه من زيد واعادته اليه ويعرض بزيد فقالت له زوجه: (أما استحيت من ابيك في سنه وشرفه ان ترد هبته؟) فما كان منه إلا أن صدر ابياته بهجاء لها فقال :

ألا بكرت عِرْسي توائم مَنْ لَحَى وأَقْربْ بأحْلامِ النِّساء من الرَّدَى

وفيها يقول :

فيا راكِبا إما عَرَضتَ فبلِّغَـــنْ بَني مِلْقَطٍ عنِّي إذا قيل من عَنَى

××××××××××

لقد نال زَيْدُ الخَيْلِ مالَ أخيكُـمُ وأصبح زيـدٌ بعد فقرٍ قد افْتَنَى

فلما سمع زهير الهجاء قال لابنه : ((لقد هجوت من أبي مكنف – وابو مكنف كنية زيد الخيل – ، رجلا غير مفحم ، وانه لخليق ان يظهر عليك)) وقد رد زيد الخيل على كعب بقصيدة توخى إلا يفحش فيها وصرح بسبب ذلك في قوله :

فلولا زُهيـرٌ أن أُكدِّر نِعْمةً لقاذعْتُ كَعْبا ما بَقِيتُ وما بَقَى [٢١]

إن إحساس كعب بالغربة القاتلة عن انتمائه زرع في نفسه بذرة الشك في كل انتماء سواه ، ومن هنا نستطيع أن نفسر سرَّ تنافره مع والده

---

[٢١] تنظر تفاصيل الحادثة والنص في ديوان كعب ١٢٦ وما بعدها . توائم : توافق ، لحى : لام ، قاذعت : دافعت وشاتمت ، وقد اخذنا برواية الأحوال لهذه الكلمة فهي أليق من (قادعت) بالدال المهملة التي وردت في رواية السكري.

في هذه الحادثة وفي سواها ، فقد ذكر الرواة أن زهيرا حين هدد بني الصيداء بالهجاء لما انتبهوا إبلا وعبدا له وقف كعب ليقول له ساخرا: ((أوسعتهم سبا وأودوا بالإبل))[٢٢] فذهب قوله مثلا .

وإن كان كعب يلتزم بحدٍّ ما في علاقته بأبيه فانه لم يلتزم بأي حدود في علاقته الاسرية الخاصة مع زوجته ، فبدأ انتماؤه الى هذه الأُسرة واهيا معرضا للانهيار في كل لحظة :

إنّ عِرْسي قد آذنتْـني أخيرا ... لـم تُعرِّجْ ولم تُؤامِرْ أميرا
أجِهارا جاهَرْتِ لا عَتْبَ فيه ... أمْ أرادَت خِـيانةً وفجُـورا

xxxxxxxxx

مـا أرَانا نَقُوْل إلاّ رَجيعـا ... ومُعادا من قَوْلِنا مَكرُورا[٢٣]

لقد كانت تفاصيل الحياة اليومية تستثير كعبا فيصبُّ جام غضبه على زوجته فهو حين ينزل به اضياف فينحر لهم بكرا كان لزوجته ثم يسمع منها عتابا على نحره بكرها يبادر الى القسم بأنه لولا ما يتوقعه من لوم الناس لطلقها وفصلت بينهما صحارى موحشة .

أفي جَنبِ بَكْـرٍ قطَّعتني مَلامةً ... لـعَمري لقـد كانت ملامتُها ثِنَـى
ألاَ لا تَلُومي-وَيْبَ غيرِكِ-عاريا ... رأى ثوبه يومـا من الدهرِ فاكْتَسَى
فأُقْسِـمُ لـولا أن أُسرَّ ندامـةً ... وأُعلِنَ أُخرى إن تَراختْ بك النَّوى
وقِيلُ رجالٍ لا يُبالون شأننـا ... غَوىَ أمرِ كَعب ما أراد وما أرْتأى
لقد سكنتْ بيني وبَيْنَكِ حِقبـةً ... بأطلائها الـعِينُ المُلمَّعةُ الشَّوى[٢٤]

---

[٢٢] ينظر الفاخر للمفضل بنم سلمة تحقيق تشالز انبروز ، لايدن ١٩١٠م ، ١٤٥.

[٢٣] ديوانه ١٥٣ ، لم تعرج : لم تعطف . لم تؤامر : لم تشاور . امير : قيم عليها ، رجيعا : مكررا .

[٢٤] ديوانه ١٢٨ ، ثنى : مرة بعد مرة . ويب : ويح ، العين : بقر الوحش واحدتها عيناء ، الملمعة الشوى : التي في قوامها بقع تخالف سائر لونها .

وما يدرينا لعل كثرة ما ضمَّه ديوان كعب من نصوص تومى الى برمه بالعلاقة الأُسرية[٢٥] هي التي دفعت السكري شارح ديوانه الى أن يقول في تقديم إحدى قصائده : (وكان لا يزال يكون بينه وبين امرأته شرٌّ في فقره وسوء خلقه)[٢٦] وأن يقول في شرح أُخرى : (وكان كعب بن زهير رجلا شريرا شرسا محارفا مملاقا لا ينمى له مال ، وعتبت عليه امرأته...)[٢٧]

لقد نفض كعب يده من الانتماء الأسري ، ومن هنا كان للمرأة التي ظل يحرص على أن يجعلها في مقدماته التقليدية مثالا للجمال الأُنثوي الباهر أن تغدو رمزا للغدر والخيانة والكذب والتلون ، فها هي (ام شداد) التي رسم لها صورة جمالية رائعة فيشبهها بظبية تطيف بوليدها ، ويشبه عينها بعيني بقرة وحشية ترعى بين الرياض والخمائل ويشبه ثناياها بأقاح ترتوي من عروق تغلغلت في تربة الروض يعود ليهدم هذا المثال الجمالي الصارخ فيقول :

فأصبحتُ قد أنكرتُ منها شَمائلا ... فمـــا شئتَ من بُخل ومن مَنْع نائلِ
وما ذاكَ عن شيءٍ أكون أجترمتُهُ ... سِـــوى أن شيبا في المَفارق شاملي
فإن تَصرميني وَيْبَ غيرِكِ تصرُمي ... وأوذِنتِ إيذانَ الخَليط المُزايـــل[٢٨]

ويبدو أن الصيغة لازمت كعبا طوال حياته ، فما صورة (سعاد) في البُردة التي قالها عند اسلامه ببعيدة عن صورة (ام شداد) فهي (اغن غضيض الطرف مكحول) وهي تبتسم عن عوارض يجري عليها ريق

---

[٢٥] تنظر نصوص اخرى من هذا النمط في ديوانه ٤١ ،٧٠.

[٢٦] ديوانه ٢١٣.

[٢٧] م.ن ١٥٣. والمحارف : الذي لا ينمى له مال.

[٢٨] م.ن ٩٢. الخليط المزايل : الشريك المفارق.

كأنه الراح الممزوجة بماء بارد صاف ، ولكن هذا المثال الجمالي الاخّاذ يتحطم تماما عندما تكتشف حقيقة الشر الكامنة وراء الجمال .

يـا وَيْحَها خُلَّةً لو أنَّها صدَقَتْ ... ما وَعـدَت أولوَ آنَّ النُّصْح مقبولُ
لكنّها خُلَّةٌ قـد سيط من دمهـا ... فَجعٌ ووَلـعٌ وإخـلافٌ وتبديـلُ
فما تَدومُ على حالٍ تكـونُ بها ... كما تَلـوَّنُ في أثوابها الغُـولُ
وما تَمسَّك بالوَصلِ الذي زعمت ... إلا كما تُـمسكُ المـاءَ الغرابيـلُ
كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلا ... وما مـواعيـدُها إلا الأبـاطيلُ
أرجُو وآملُ أن يعجلنَ فـي أبدٍ ... وما لهنّ طوالَ الدَّهرِ تعْجيـلُ[٢٩]

الا تكشف صيغة جمع المؤنث التي وردت في البيت الأخير عن هذه العقدة الخفية التي شكلتها حياته الاسرية القلقة فانعكست على علاقته بالمرأة بوجه عام ؟ إن قناعتنا بأن صورة المرأة في مقدمات القصيدة الجاهلية تستعير ملامحها من ملامح المناخ النفسي العام لموضوع القصيدة نفسها فإن اطراد رسم المثال الجمالي ثم تهديمه في مقدمات كعب لا يخلو من مدلول يقرر اتجاها شخصيا فرض آثاره على نتاج الشاعر بشكل عام سواء في اختياره لموضوعات قصائده أم في انعكاس ملامح الموضوعات على ملامح المقدمات .

لقد كان انتماء كعب الى أسرة أبيه واهنا قلقا ، وكان انتماءه الى اسرته وزوجه اكثر وهنا واشدّ قلقا ، وكان لا بدَّ له من انتماء تطمئن له نفسه الحائرة ، أما العودة الى مزينة فلم تكن متاحة له وهو لايجد لقمة العيش إلا من مال أبيه المقيم في بني مرة ، واما البقاء في بني مرة والتمسك

---

[٢٩] م.ن ٨ . سيط : خلط ، ولع : كذب.

بالتقاليد السلمية التي مارسوها فلم يكن يمنحه فرصة التعبير عن عنف شخصيته وحدَّة مزاجه ، ومن هنا كان له أن يبحث في أحلامه الشعرية في الأقل عن انتماء من نمط سبقه الشَّنفرى الى التمسك به على صعيد الواقع حين غادر قومه ليعيش مطمئنا بين وحوش الصحراء متخذا منهم أهلا بعد هجر الأهل .

وعلى الرغم من أن كعبا لم يتصعلك بل ظل مقيما في بني مرة طوال حياة أبيه فإنه مارس في شعره تصوير حياة التفرد في صحراء لا يكدّر صفاء الانتماء اليها نصح أب ولا لوم زوجة ولا حرمان من انتماء دموي .

وعلى رمال تلك الصحراء ظل كعب يجد انتماءه الحقيقي خارج اطار المحتمع الذي لم يبق له من يطمئن إليه فيه إلا خليل يمارس معه لذته ويشاركه نزواته ثم لا يملُّ من امتداد الشوط مهما امتد .

وقد أشهدُ الكأسَ الرَّويَّة لاهيا ... أعلُّ قُبَيلَ الصُّبحِ منها وأُنْهلُ
يُنازعُنيها لَيِّنٌ غيرُ فاحشٍ ... مُبادرُ غاياتِ التجارِ معذَّلُ
إذا غلَبَته الكأسُ لا متعبِّسٌ ... حَصورٌ ولا من دُونها يَتبسّلُ
وليس خليلي بالملول ولا الَّذي ... يلُومُ على بُخلِ البَخيلَ ويَبْخلُ[٣٠]

ومع هذا الخليل يواجه كعب عالمه الذي اختاره في مجاهل الأرض ، فهو يمارس معه حياة الصعاليك التي تبرز فيها الذات وتحقق وجودها الذي تطمح الى تحقيقه خارج اطار الانتماء .

---

(٣٠) م.ن ٤٢ . غير فاحش : دمث الخلق ، غايات التجار : اقصى ثمن يطلبون . حصور : ضيق . يتبسل : يعبس .

ونَارِ قُبـــيل الصُّبحِ بادرتُ قَدْحَها حَـــيَّا النَّار قَدْ أوقدتُها لِمُسافرِ
فَلـوَّحَ فيهـــــا زَادَهُ وربأتُـــهُ على مَـرْقبٍ يَعْلُو الأخرَّة قاهرِ
ولَما أجنَّ الليلُ نَقـــــبا ولَمْ أَخفْ على أثرٍ مِنِّـــي ولا عَيْـنَ ناظِرِ
أخَذْتُ سلاحي وأنحدرْتُ الى أمرِيءٍ قليلٍ أذاهُ صدرهُ غيرُ واغرِ[٣١]

الصديق الصعلوك هو آخر الخيوط التي ظلت تربط بين كعب والمجتمع الانساني الذي لم يعد يعنى كثيرا بتوثيق أواصر الانتماء اليه ، وما يعنيه من هذا الانتماء الذي لا تنميه إليه وشيجة دم تتيح له من أن يمارس ما يصبو اليه من تعبير عن شخصية عنيفة ومزاج حاد ؟

لقد اتجه كعب الى عالم الصحراء يمارس انتماءه في وحشته ويعبّر عن تطلع الى خوض صراع لم يكن مهيأ له أن يخوضه في اطاره الاجتماعي ، وذلك هو سرّ الغزارة الواضحة في عدد لوحات الرحلة من مقدمات قصائده والغزارة الواضحه لصور الصحراء في تلك اللوحات فضلا عن غزارة قصائده ذات المقدمات التقليدية ، وتلك حقائق استخلصناها من دراسة إحصائية أجريناها على ديوان كعب ودواوين اربعة من معاصريه وتضمنها المسرد الآتي [٣٢]

---

[٣١] م . ن ١٨٥ . حيا النار : لأحياء النار ، ربأته : رقبت له ، مرقب : مكان شرف ، الاحزة : جمع حزيزة وهي المكان الغليظ . نقبا : طريقا في الجبل ، واغر : حاقد.

[٣٢] اعتمدنا في استخراج حقائق المسرد على دواوين الشعراء المحققة تحقيقا علميا فرجعنا الى ديوان النابغة تحقيق الدكتور شكري فيصل ، دمشق ١٩٦٨م وديوان لبيد تحقيق الدكتور احسان عباس ، الكويت ١٩٦٢م ، وديوان الحطيئة تحقيق نعمان امين طه ، مصر ١٩٥٨م ، وطبعة دار الكتب لديواني زهير وكعب.

اسم الشاعر	عدد قصائد الديوان ومقطوعاته	المقطوعات والقصائد ذات الموضوع الواحد	نسبتها الى نصوص الديوان	القصائد ذات المقدمات التقليدية	نسبتها الى نصوص الديوان	عدد لوحات الرحلة	نسبتها الى عدد القصائد ذات الموضوعات التقليدية	عدد لوحات الرحلة التي تقتصر على وصف الناقة او الفرس	نسبتها الى عدد لوحات الرحلة	عدد لوحات الرحلة التي تتضمن وصف الصحراء مع وصف الناقة او الفرس	نسبتها الى عدد لوحات الرحلة
زهير بن ابي سلمى	٥٥	٢٥	%٤٥.٤٥	٣٠	%٥٤.٥٥	١٩	%٦٣.٣٣	١٠	%٥٢.٦٤	٩	%٤٧.١٦
النابغة الذبياني	٥٧	٥٥	%٧٣.٣٣	٢٠	%٢٦.٦٧	١١	%٥٥	٨	%٧٢.٧٣	٣	%٢٧.٢٧
لبيد بن ربيعة العامري	٦٤	٤٥	%٧٠.٣٢	١٩	%٢٩.٦٨	٩	%٤٧.٣٧	٧	%٧٧.٧٨	٢	%٢٢.٢٢
الحطيئة	١٠٦	٧٤	%٦٩.٨١	٣٢	%٣٠.١٩	١٣	%٤٠.٦٣	٩	%٦٩.٢٤	٤	%٣٠.٧٦
كعب بن زهير	٣١	١٢	%٣٨.٧١	١٩	%٦١.٢٩	١٦	%٨٤.٢١	٧	%٤٣.٧٥	٩	%٥٦.٢٥

ونحن لا نريد أن نركن الى المدلول الكمي وحده في تقرير حقيقة عمق انتماء كعب الى عالم الصحراء وتعبيره عن وجوده الانساني من خلال خوض مخاطرها ، بل نقيم قناعتنا على استقراء طبيعة التفاصيل التي ضخها في لوحات رحلته وهو يتحدث عن صحرائه التي ارتاد مجاهلها وواجه مخاطرها وعرض ذلك كله باسلوب ينمُّ عن رغبة جامحة في تكرار تجربة الارتياد والمواجهة من خلال تعميق التفاصيل حتى كأن الصحراء غدت وطنه الذي لا يحسّ بالانتماء إلا اليه ، وذلك هو السر في تحول لوحات كعب من نمط الوصف التقريري الذي نتأمله في دواوين شعراء القبائل الى نمط وصف الصعاليك الذي يشيع فيه تدفق التفاصيل وعفوية المعالجة المنبئة عن أن الشاعر يتحدث عن عالم مألوف يعيش فيه وليس العالم الذي يمرّ به مرورا كلّما دعت الحاجة الى ذلك .

أَلم يكن رمل الصحراء وحده هو الوطن الذي تهفو إليه نفس كعب؟ فعلى ذلك الرمل خلق الشاعر لنفسه مجتمعا من مخلوقات غريبة ظل يعبّر عن مدى قربها من نفسه وعمق رغبته في الانتماء إليها بعد أن انتزع نفسه من معانات الاخفاق في التعبير عن ذاته في اطار الانتماء الى مجتمعه الانساني .

ففي صحراء كعب تعمّر الجن تلك المجاهل التي لا يعمرها انسان ولكن عزيف الجن لا يبعث في قلب كعب إلا الرغبة في الإصغاء لعلّه يعقل ما يسمع .

وصَرْمــاءَ مِذكارٍ كأن دويَّها بُعــــــيدَ جَنَان الليل مما يُخيِّــلُ
حديثُ أناســيٍّ فلما سَمِعتُــهُ إذا ليس فيهِ مــا أبينُ فأعقــلُ[٣٣]

وتبقى صورة الجن ماثلة في لوحات صحراء كعب[٣٤] لتنبئ عن رغبته العارمة في ارتياد ما لا يرتاده البشر من أرجائها القصية ، على انه يستحضر صورة أُخرى تنبئ عن الرغبة نفسها ، ففي الصحراء التي يمّر بها جثث نوق هلكى جرّب أصحابها أن يرتادوا بها الصحراء فكان الموت مصير الجميع :

ولاحِبٍ كحصيرِ الراملاتِ تــرى مــن الــمَــطيِّ على حافاتِه جيَفَا
والمُرْذَيات عليــــها الطَيرُ تنقرُها إما لهيدا و إما زاحفــــا نَطِفَــا[٣٥]

وتتكرر الصورة نفسها في لوحات رحلة كعب[٣٦] ...

وإذ يدرك كعب إن صورة الإبل الهلكى في الصحراء قد تغري بالظن بأن ثمّة من ارتادها قبله فاخفق فإنه يذهب الى ابعد من هذا فيستحضر صورة صحراء آمنت فيها القطا مرور العابرين فَبَنَتْ أعشاشها

---

(٣٣) ديوان كعب ٤٥ . صرماء : ارض لا نبت فيها ولا ماء ، مذكار : لا يسلكها الا الذكور ، دويها : عزيف الجن فيها ، جنان الليل : ظلمته .

(٣٤) ينظر ديوانه ٩٤.

(٣٥) م . ن ٧٣ ، لا حب : طريق بين ، الراملات : الناسجات ، المرذيات : الهزلى المعيبة ، لهيداً : لهدها الحمل فنقب جنبها فتفسخ . النطف : الذي هجم الدبر على جوفه .

(٣٦) ينظر ديوانه ١٢٤.

على أديمها وتركت فراخها في تلك الاعشاش واثقة أن احدا لن يرتاد مواضع اعشاشها النائية :

ومُستهلكٍ يَهدي الضَّلُولَ كأنَّهُ ... حصيرُ صناعٍ بينَ أيدي الزَّوامِلِ

مَتَى ما تشأ تَسمعْ إذا ما هبَطْتَهُ ... تَراطنَ سِربٍ مُغربَ الشمسِ نازلِ

روايا فِراخٍ بالفلاةِ قوائمٍ ... تحطَّمَ عنها البيضُ حُمرِ الحواصلِ

توائمَ أشباهٍ بغيرِ علامةٍ ... وُضعنَ بمجهولٍ من الأرضِ خاملِ[٣٧]

ونادرا ما يواجه كعب عالمه الصحراوي مع خليله الصعلوك الذي رأينا أنه مارس معه نشوة حياة الصعلكة في أحد نصوصه ، فهو يفضل أن يقطع آخر خيوط الانتماء الانساني حين يستقبل أفق صحرائه ليشكل خيوط انتماء جديد ، ففي وحشة تلك الصحراء ينسج كعب قصة استقبائه للذئب وغراب يبغيان القِرى فلا يجدان عنده ما يفيض عن قوته :

قَطعتُ يُماشيني بها متضائلٌ ... من الطَّلسِ أحيانا يخب، ويَعسلُ

يُحبُّ دُنُوَّ الإنسِ منه وما بهِ ... إلى أحد يوما من الإنسِ مَنْزِلُ

تقرَّبَ حتَّى قلتُ لم يَدْنُ هكذا ... من الإنسِ إلا جاهلٌ او مضلَّلُ

مدى النَّبلِ تغشاني إذا ما زجرتُهُ ... قُشعْريرةٌ من وجههِ و هوَ مُقبلُ

إذا ما عوى مُستقبلَ الرِّيح جاوبَتْ ... مسامعُهُ فاهُ على الزَّادِ مُعولُ

كسُوبٌ إلى أن شبَّ من كَسْبَ واحدٍ ... مُحالفُهُ الإقتارُ لا يتموَّلُ

---

(٣٧) م . ن٩٢ . مستهلك : طريق ، الزوامل : النواسج ، وتنظر صورة مماثلة في الديوان ٧٦.

كأنَّ دُخانَ الرمـــثِ خالط لونهُ يُغَلُّ به مـــــــن باطنٍ ويُجـلَّلُ
بَصيرٌ بأدغال الضـــراء إذا خدا يَعيـــــل ويخفى بالجَهَادِ ويـمثُلُ
تراهُ سمينا ما شـــــــتا و كأنَّهُ حميٌّ إذا ما صافَ أو هو أهْـزلُ
كأن نسَـــــاهُ شِـــرعةٌ و كأنه إذا ما تـمطىَّ وجْهة الرِّيح مِحْملُ
وحَـمـــشٌ بصيـرُ المقلتين كأنهُ إذا ما مشى مسـتكرهَ الرِّيح أقزلُ
يكادُ يَرَى ما لا تَـرَى عينُ واحدٍ يُثيرُ لهُ ما غيَّب التُّـــربُ معولُ
إذا حضراني قلتُ لو تعـلـمانهِ ألـم تعلما أني من الزاد مُرْمِـــلُ
غرابٌ وذئبٌ ينظران متـى أرى مُـــناخ مبيتٍ او مقـــيلا فأنزلُ
أغارا على ما خيَّلتْ وكِلاهمـــا سيخلفهُ منِّي الذي كان يَأمُـــلُ[٣٨]

وتشير المتابعة المتأنية لصورة الذئب والغراب الى هذه اللذة الخفية التي كان كعب يعيش كل لحظة من لحظاتها وهو ينغمر في انتمائه الذي اختاره فيتابع ملامح شخصياته ويصور ادق الانفعالات التي تنتابه وهو يتأمل تلك الشخصيات ويرسم صورها التي حفرت عميقا في ذاكرته ، أما ضمير المتكلم المفرد فهو اشارة حاسمة أُخرى الى أن كعبا لم يكن يتحدث

---

(٣٨) م . ن ٤٦. متضائل : نحيف ، الطلس : الذئاب . يعسل : العسلان مشي الذئب . جاوبت مسامعه فاه : أي تدخل الريح من فمه وتخرج من مسامعه لخلاء جوفه ، الاقتار : الفقر ، الرمث: نوع من الشجر يعل يدخل في آباطه ، يجلل : يعلى على متنه ، الضراء الشجر الذي يواري الانسان ، يعيل : يميل ، الجهاد : الصلب ، يمثل : ينتصب ، مشرعة : وتر ، محمل : محمل السيف شبه به لدقته ، حمش : غراب ، اقزل : اعرج ، معول : شبه منقاره به ، مرمل: ناقص الزاد ، شجاعي رملة: حيتا رمل.

عن (رحلة) عادة ما كان اهل البادية يقطعونها في ركب جماعي ، إنه يتحدث عن أرض يحسّ أن جذوره وحدها ينبغي أن تنغرس فيها ، ومجتمع يريد أن يمدَّ جسور انتماءه المتفرد إليه .

وإذ يمثّل الجن والقطا وجثث الرذايا والذئب والغراب مخلوقات مجتمع كعب الصحراوي فإن ثمّة مخلوقا آخر ظل يرافقه في رحلته ليمثل القاسم المشترك بين المجتمع الانساني الذي غادره والمجتمع الصحراوي الذي يطمح الى أن يذوب فيه ، إنه (الناقة) التي بدت في كل لوحاته أداة مواجهة تمتلك مواصفات القدرة والصلابة والضخامة سواء من خلال سماتها الخارجية المنظورة أم من خلال قدراتها الكامنة في عزمها المتجدد على مواصلة الشوط المجهول .

إن تركيز كعب على وصف الناقة وامتداد ذلك الوصف على مساحة متميزة في بعض قصائده[٣٩] لا ينبغي أن يشغلنا عن حقيقة مدهشة وهي أن هذه الناقة تغادر واقعها الحيواني أحيانا لتتقمص الصورة التي ظلّت تشكل عقدة حرمان كعب من الحياة الأسرية المستقرة ، فهي غالبا ما تحتل الموضع الذي كان ينبغي أن تحتله شريكة الحياة في رحلة العمر .

ناقة كعب تتحول رمزا للأمان والسكن والاطمئنان ، بل إنه ليغلو في تعميق علاقته الانسانية بها وهما يواجهان ليلا موحشا في مهمة قفر فينيخها ويتوسَّد الرمل تاركا لها أن تحرسه وهو نائم ولكنه ما يكاد يغفو

---

[٣٩] ينظر مثلا ديوانه ٩-١٨ ، ٢٢-٢٦ ، ٨٠-٨١ ، ٩٤-٩٧ ، ١١٥-١١٨ ، ١٣٨-١٣٩ ، ١٥٩-١٦١ ، ٢١٧-٢٢٢ ، ٢٢٥-٢٢٧.

حتى يهبّ حين يحسّ أنها هي بحاجة الى النوم فيؤامر نفسه أيتولى حراستها كما تولت حراسته أم ينام ويدع مصيرهما كليهما للأقدار.

أنَخْت قلوصـــــي وأكتلأتُ بعينها وآمـــــرتُ نفسي أيَّ امريَّ أفعلُ
أأكلؤها خوفَ الحـــــوادثِ إنهـــا تريبُ على الإنسان أم أتوكَّـلُ[٤٠]

أليست الزوجة التي تعين على متاعب الحياة أليق بهذه الصورة من الناقة ؟

من هنا كان هاجس كعب في لوحات رحلته أن يقرن بين صورتي الناقة والمرأة بوسائل فنية مختلفة فهو يعمد الى الربط المباشر بين صورة أوب ذراعي ناقته وأوب ذراعي النائحة الثكلى التي يبعثها حنانها الأُسري على الافراط في إيلام نفسها وتعذيب جسدها وقد واجهت مصيبة فَقْد ولدها البكر .

كـــأن أوب ذراعيها وقد عرِقَتْ وقـــد تلـــفَّعَ بـــالقورِ العَـــساقيـــلُ
و قـــالَ للقوم حاديهم وقد جَعَلَتْ ورْقُ الجنادب يركضْنَ الحصى قيلوا
شـــدَّ النهارِ ذراعا عيطلٍ نصفٍ قامَتْ فجاوبَـــهَـــا نكْـــدٌ مثاكيـــلُ
نوَّاحةٌ رخـــوةُ الضبعين ليس لها لمـــا نعـــى بكـــرَها الناعونَ معقولُ
تَفْري اللبان بكفَّـــيها ومدرعُهـــا مشقَّقٌ عـــن تراقيهـــا رعابيـــلُ[٤١]

---

(٤٠) ديوانه ٥٥ . اكتلأت : كلأ ، حفظ.

(٤١) م.ن ١٦. أوب : رجع ، القور : الجبال ، العساقيل السراب ، ورق : ذات لون رمادي ، شد النهار : ارتفاع النهار ، عيطل : امرأة طويلة ، نصف : بين الشابة والمسنة ، الضبعين : العضدين ، تفرى اللبان : تشق الصدر وما حوله ، تراقيها : جمع ترقوة وعنى بها الترقونين وما حولهما ، رعابيل : متخرقة .

على إن صورة المرأة تتسلل الى مقاطع وصف الناقة من منافذ أكثر خفاءً واقدر على بعث دهشة المتلقي فعين ناقة كعب التي تديرها للدرب الممتد حتى الأُفق أشبه بمرآة الصناع الحاذقة التي تعرف كيف تتزين لزوجها فتظهر له أبهى محاسنها وتواري ما سواها.

وتـــديرُ للخــرق البعيد نياطُــهُ بَعْدَ الكـــلالِ وبَعْدَ نوْم السَّــاري
عينـــــا كمرآة الصَّناع تُديُرهــا بــأنــاملِ الكـــفَّين كــلَّ مُــدارِ
بجمالِ مــحــجرِها وتَعْلمُ ما الذَّي تُبدي لنظرةِ زوجها وتُــواري[٤٢]

أليس من حقنا أن نظنَّ أن المرأة الوفية الرقيقة الحريصة على رضى زوجها وودِّه كانت عقدة نقص كعب التي عانى منها وهو يواجه واقع الشَّر الذي كان يدور بينه وبين زوجه لفقره وسوء خلقه ؟

وما دام كعب غير قادر على تغيير واقعه الأسري الممزق فإن من حقّه أن يعمد الى ممارسة نمط من احلام اليقظة التي يعوض فيها عن حرمانه بأعادة تشكيل ملامح ناقته لتحتل في عالمه الصحراوي ما كان ينبغي أن تحتله المرأة المثال في عالمه الانساني الذي غادره الى غير رجعة .

لقد بلورت حياة كعب في بني مُرّة الغطفانيين هذا التوجّه العنيف الى التحول بالانتماء من الاطار الاجتماعي الى الاطار الصحراوي الذي كاد نمط كعب الشعري فيه يبدو أقرب الى نمط الصعاليك ، أما الحسُّ القبلي وما يتمخض عنه عادة من آثار واضحة في شعر شعراء القبائل

---

[٤٢] م.ن ٤٠ . الخرق : الذي انخرق في الفلاة فذهب ، نياطه : ما يتعلق به من نهاية ، الكلال : الاعياء ، الصناع : المرأة الحاذقة.

ويتوزع بين مديح وهجاء وفخر ورثاء فإننا نكاد لا نلمح له اثرا في نتاج كعب في المرحلة التي قضاها في بني مُرّة ، فديوانه كله لا يضمُّ إلا نصا واحدا من ثلاثة أبيات توجَّه فيها الى (آل بهثة) يدعوهم الى العودة الى ذبيان بعد أن غادروا ارضهم مغاضبين واستقروا في موضع يقال له (تثليث) ، وهي أبيات لا تنمُّ عن تفاعل صادق ولهذا بدت أدنى الى النثرية في إطارها الأدائي :

هلـــــمَّ ألينا آل بُهثــة إنَّمــا ... هي الـــــدَّارُ لا نعتاضُها ونهينُها

هلـــــمَّ الى ذبيان إن بلادهــا ... حُصُــونٌ وانَّ السمهريَّ قرُونُهــا

ولا ألفِـــيَنكمُ تعكُفُون بقُنَّـــةٍ ... بتثليث انتم جُندُهــا وقطينُهــا[٤٣]

لقد ظل كعب يتطلع الى انتمائه الدموي المفقود وهو مضطر الى العيش في كنف ابيه الذي ظل مقيما في أخواله المريين ، ولكن وفاة أبيه فتحت أمامه فرصة اللحاق بانتمائه المزني الذي لم يعد له منفذا للحياة الكريمة سواه .

وكانت مزينة تخوض مشكلات عنيفة مع الخزرج ، فقد روي أن رجلا مزنيا يقال له (جؤي) نزل على حلفاء مزينة من الأوس ، وكانوا في قتال مع الخزرج ، فخرج معهم للقتال فأصيب فرآه ثابت بن منذر والد حسان الشاعر فشمت به وعرض بمزينة فأقسم جؤي وهو يجود بأنفاسه أن مزينة ستقتل به من الخزرج خمسين ليس فيهم أعور ولا أعرج [٤٤] وبلغ

---

[٤٣] م.ن ٢٠٧. نعتافها : نتركها ، السمهري : الرمح ، قرونها : ما تناطح به أعداءها ، قنة : رأس جبل ، تثليث : موضع .

[٤٤] تنظر تفاصيل الحادثة في ديوان كعب ٢٠٩.

الخبر مزينة ولكن يبدو أنها لم تكن مهيأة لطلب الثأر ، وهنا وجد كعب فرصته للتعبير عن عنف الشخصية وحدّة المزاج ، فراح يحرض مزينة على الثأر لعلها تخوض أتون حرب ظلت نفسه تتوق الى خوضها عندما كان مقيما في أخواله المزينين ، وكان أن توجه الى قومه بقصيدة تحريض أقام مضمونها على نمط من الإيلام النفسي القائم على التهكم ، فهو يعلن عن خشيته من أن يطول الزمن حتى يموت القتلة ثم يموت اولادهم فلا تجد مزينة من تثأر منه مكتفية بالوعيد الفارغ الذي لا طائل وراءه.

فأبلـــــغ إن عرضت بنا رسولا ... أبا الـمـــــملوح إنَّ له جلالا
أمـودٍ خلفـــــكم هرَما ولّمـا ... تذوقُوا من عـــــداوتنا نكالا
ولَّمـا تفعلـــــوا إلا وعيـدا ... كـفى بوعيدكـــم لَهُمُ قتـالا
وعيـدٌ تَخدجُ الارحـــــامُ منه ... وينقلُ من أماكنها الجبـالا[٤٥]

وتبلغ قصيدة كعب مبلغها من نفوس المزنيين فيغيرون على الخزرج في يوم بعاث ويقتلون منهم عدة ويأسرون ثابت بن المنذر ويأبون أن يفادوه إلّا بتيس أسود اجم امعانا في اذلاله .

وكان ذلك كله موقفا يشفي نفس كعب وينفِّس عن هذا الاندفاع المكبوت في أعماق نفسه سنين طوالا ، فتلك هي الحياة التي كان يبحث عنها وهو مكتوم الأنفاس في أخواله المزينين أليس من حقه وهو يشارك في أول معركة ويحرز أول نصر ان يتدفق بنشيد انتقام يودعه كلُّ انفعالات

---

[٤٥] م.ن ٢٠٥. معود : هالك ، خلفكم : أولادكم ، تخدج : تضع قبل تمام الجنين.

مزاجه الحاد وشخصيته المندفعة التي وجدت متنفسها في أجواء خوض سيل الدم وأدراك الثأر.

لـقـــد ولّـــى آليَّته جـــؤيٌّ ... مـــعـــاشر غير مطلولٍ أخوهـــا
فإن تـــهـــلِك جُؤيٌّ فكل نفسٍ ... سيجلبُهـــــا كـــذلك جالبوهـــا
وان تـــهـــلك جُؤيٌّ فإن حربا ... كظنِّك كان بعـــــدكُ موقدوهـا
وما ساءت ظنـــونُك يوم تُولي ... بأرماحٍ وفى لك مشـــرعوهـــــا
كأنكّ كنت تعلمُ يـــــوم بُزَّتْ ... ثيابُك مـــا سيلقـــــى سالبوهـــا
لنذرك والنذورُ لها وفـــــاءٌ ... إذا بلـــغ الـــخـــزايةَ بالغوهـــــا
صبحنا الخزرجيةَ مُرهـــفاتٍ ... أبـــاد ذوي أرومتـــهـــا ذووهـــا
فما عُتر الظباءُ بحي كعـــبٍ ... ولا الخمسونَ قصَّرَ طالبوهـــــا[٤٦]

ولم تكن تلك هي الفرصة الوحيدة التي أُتاحت لكعب منفذ التعبير عن هاجس العنف الذي لم يكن متاحا له إلّا من خلال انتمائه الدموي الذي عاد اليه ، فقد قتلت بنو سليم ربيعة بن مكدم وكان لكعب خؤولة في كنانة قوم ربيعة ، وبلغه أن بني سليم يعرضون ديّة ربيعة على كنانة فخشي أن يقبلوها وعمد الى تحريضهم على رفض الدّية ودعاهم الى خوض مثل ما خاضته مزينة يوم بعاث لادراك ثأر قتيلها جؤي ، فكان أن تدفق بقصيدة يقول في بعض أبياتها.

أبلـــغ كنـــانة غثها وسمينُهـــا ... الـــباذلين رباعَـــــها بالقاطـــنِ
إن الـــمـــذلة ان تُطلَّ دماؤكـــم ... ودماء عوف ضامـــنٌ فـــي العاهنِ

---

(٤٦) م.ن ٢١١ . أليته : حلفته ، تولي : تقسم ، عتر الظباء : أي ذبحت الظباء بدلا من النذر.

أموالكم عوضٌ لـــهـم بدمائِهـم ودماؤكم كلفٌ لـــهم بظعائـــــنِ

طلبوا فأدرك وترَهـــمْ مولاهمُ وأبت سعاتكمُ ابـاءَ الحـــــارنِ

شُدوا المآزرَ فأثاروا بأخـــيكمُ إنّ المكـــارم نعم ربحُ الثامــنِ[٤٧]

وتبقى (موثبات) كعب مفعمة بدلالاتها على عمق رغبته في اثارة الخصومات واذكاء نار الحرب عن طريق الموازنة بين موقفي الذل والكرامة وسحب المتلقي الى اختيار موقف المواجهة من خلال التذكير بالهوان الذي سيكون عند اختيار أي طريق آخر .

وذلك هو سر بحث كعب عن انتمائه القبلي الذي ظل يطمح الى أن يعبّر فيه عن ذاته بعد أن عانى من كبت الواقع المسالم الذي اضطر الى الرضوخ له ، وهو في اخواله المربين ، ولم يستطع التمرد عليه إلّا من خلال أحلام يقظته التي مارسها في لوحات رحلته التي رأينا تفاصيلها المتجهة الى فتح منافذ المغامرة والتنفيس عن طاقة الشر المكبوت .

ويبزغ نور الإسلام وكعب يعيش بين ظهراني قومه المزنيين الذين لم يدخلوا في الإسلام ، وكانت تلك فرصة جديدة للتعبير عن عنف الشخصية وحدّة المزاج بعد أن توفرت أرضية الانتماء الكفيلة بمنحه ثقة الاطمئنان الى القوة الضامنة لحمايته حين تدلهم الخطوب .

---

[٤٧] ينظر الخبر والقصيدة كاملة في الأغاني ٦١/١٦ وبعض ابيات القصيدة في ديوان كعب ٢٢٩.

وتتباين الآراء في مسألة موقف كعب من الإسلام ، فالمعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهدر دمه لهجائه المسلمين ، والذي يبدو أن كعبا أفحش في ذلك الهجاء . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبلغه هجاء شعراء المشركين فلا يزيد على أن يوجه الشعراء المسلمين للرد عليهم ، ولم يهدر دم أحد منهم إلا كعب بن الاشرف الذي أمعن فشبب بنساء المسلمين وأفحش ، ومن هنا يكون لنا أن نأخذ بما رواه ابن الاثير الذي ذهب الى أن الرسول صلى الله عليه وسلم انما أهدر دم كعب بن زهير لتشبيبه بأم هانئ بنت ابي طالب التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب في الزواج بها ثم لم تقسم له[٤٨].

وكان أن دخلت مزينة في الإسلام فخذلت كعبا الذي بقي مطاردا حتى جاء هو واخوه بجير فنزلا موضعا يقال له (ابرق العزاف) يستطلعان اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال بجير لكعب اثبت حتى آتي الرجل فانظر ما يقول . فلما لقي بجير الرسول صلى الله عليه وسلم شرح الله صدره للإسلام فأسلم وأرسل الى كعب ان اقبل فإن الرجل لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، ولكن كعبا ارسل الى اخيه شعرا يعاتبه فيه على خذلانه له فأجابه بجير بشعر مثله[٤٩].

---

[٤٨] ينظر الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، بيروت ١٩٦٦م ، ٢/٢٧٤ ؟

[٤٩] تنظر المقطوعتان في ديوان كعب ٣ ، ٤

وتضيق الارض بكعب فلا يجد إلا أن يقبل على الرسول صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه وينشده بردته .[٥٠]

ويذهب الدكتور طه حسين مذهبا متفردا في اضاءة بعض جوانب قصة إسلام كعب حين يقرر أن كعبا وبجيرا عندما وردا ابرق العزاف كانا قد ائتمرا على اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم وإن الذي تطوع للمهمة هو بجير على حين كانت مهمة كعب هي انتظاره لتسهيل أمر الهرب ، بيد أن بجيرا اسلم فأسقط في يد كعب وذلك هو سر طبيعة عتاب كعب لبجير في أبياته التي وجهها إليه حيث يقول :

ألا أبلغا عني بـــجـــيرا رسالة فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا [٥١]

ونحن نعترف بأن رأي الدكتور طه حسين – لو صدق – أدنى الى التعبير عن شخصية كعب العنيفة ولكننا نفتقد التوثيق التاريخي له .

ويبدو أن دخول كعب في الإسلام لم يلغ من شخصيته هذا الميل العنيف في الاندفاع والحدة ففي بردته – وهي اولى قصائده التي انشدها بعد إسلامه – تبدو (سعاد) التي افتتح قصيدته بالنسيب بها كاذبة خداعة (سيط من دمها فجع وولع واخلاف وتبديل) ، وهي صيغة رأيناها شائعة

---

[٥٠] تنظر تفاصيل قصة إسلام كعب في السيرة النبوية لإبن هشام تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر ١٩٣٧م ١٤٩/٤.

[٥١] ينظر تفصيل راي الدكتر طه حسين في كتابه في الادب الجاهلي ، مصر ١٩٢٧م ٢٩١.

في نصوصه الجاهلية التي انبثق اكثرها في مواقف الشر والخصومة التي عكست آثارها على صور المرأة في مقدمات قصائده ، بَيْد أن ذلك لا يثلب من وجاهة ما ذهب اليه الدكتور عناد غزوان من تحليله للبردة حين ذهب الى صورة (سعاد) هي معادل صورة (العصبة) التي كان كعب يعتمد على مساندتها في محاربته للإسلام ولكنها خذلته فتركته وحيدا امام تهديد الموت [٥٢] وثم حقيقة أخرى ينبغي لنا أن نتأملها وهي أن أول قصيدتين قالهما كعب بعد إسلامه وهما (البردة) و (الرائية في مدح الأنصار) ضمنا لوحتي رحلة على ناقة ، وفي كل لوحة منهما عودة الى الصحراء الموحشة التي كانت منفذه للتعبير عن احساسه بالانسلاخ من الانتماء الاجتماعي وانغماره في الانتماء الى عالم التفرد في أجواء الوحشة والانقطاع ، وذلك ما يغرينا بالظن بأن كعبا عاد الى احساسه بالغربة وهو يعيش في مجتمعه الإسلامي الجديد الذي يبدو أنه دخله أولا فزعا من إهدار الدم ، بَيْد أن هذا الاحساس لم يدم طويلا ، فقد انغمر كعب في انتماءه الإسلامي الجديد وحسن إسلامه حتى انه ليتوجه الى قومه المزنيين الذين يبدو أنهم نقضوا إسلامهم فارتدوا يدعوهم في قصيدة له الى أن يجمعوا أمرهم ويوفوا بما كانوا عاقدوا الرسول صلى الله عليه وسلم عليه :

---

[٥٢] تنظر دراسته للبردة في مجلة الطليعة الادبية ، العدد ٥ ، بغداد ١٩٧٩م.

رحلـــتُ إلى قومي لأدعو جُلَّهـــم ... إلى أمـــرِ حزمٍ أحكمتهُ الجوامعُ

ليوفوا بـــمـــا كانوا عليه تعاقدوا ... بخيف منـــى واللهُ راءٍ وسامـــعُ

وتُوصل أرحـــــامٌ ويفرج مُغرمٌ ... وترجع بالوُدُّ القديـــــم الرَّواجعُ

فأبلغ بها افناء عُثمانَ كلَّـــــــها ... وأوسا فبلِّغها الذي أنا صـــــانعُ

سأدعوهمُ جهدي الى البِّر والتقى ... وأمْرِ العُلا ما شايعتني الأصابعُ

فكونوا جميعا ما استطعـــتم فـــإنه ... سيلبسكم ثوبٌ من الله واسعُ[٥٣]

ومضمون القصيدة وتفاصيلها يقدمان إشارة حاسمة الى تمكّن العقيدة من نفس كعب وتوجهه بانتمائه كله الى هذا المجتمع الإسلامي الذي لم يعد الانتماء القبلي يضاهيه بأية حال .

وعلى الرغم من أننا لا نسمع لكعب شعرا إسلاميا بعد هذه العينية فانها وحدها كفيلة بأن تمنحنا الاطمئنان الى تصورنا لطبيعة استقرار الرجل على انتمائه الجديد .

لقد عانى كعب من واقع انتمائه المزدوج في الجاهلية ، وعانى من الواقع نفسه أبان بزوغ نور الإسلام وظلت نفسه المضطربة تبحث عن التعبير عن اندفاعها وحدّتها من خلال انتماء يضمن لها ذلك التعبير في

---

(٥٣) ديوانه ١١٢. اوس وعثمان ولدا عمرو بن اد بن طابخة وامهما مزينة بنت كلب بن وبرة واليها ينسب عقبها وزعم الاصمعي ان القصيدة لاوس بن حجر ولا يعقل ذلك فاوس تميمي وليس مزنيا.

مجتمع لا وزن فيه إلا للفعل الجماعي ، من هنا تحولت حياته الى سلسلة من الاضطراب بحثا عن هذا الانتماء حتى وجدت استقرارها الأمثل في ظل العقيدة الإسلامية ، ولكن الأجل لم يدع له فرصة التعبير الواضح عن اطمئنانه الى هذا الانتماء الّا في قصيدته العينية ، وما يدرينا لعل العمر لو امتد بكعب لسمعنا ما يؤكد هذه الحقيقة التي استنبطناها من نص فريد ، ثم ما يدرينا لعل فيما ضاع من شعره ما لو كشفت عنه الأيام لأتاح لنا فرصة إقامة الاستنباط على أسس توثيقية جديدة .